منزع قصصي
في قصائد قديمة (١)

د. صلاح حفني

أكاديمي مصري

يتناول هذا المقال ملمحًا جماليًّا من ملامح شعرنا القديم، يتمثل في التصوير القصصي، نعرض له في النقاط الآتية:

- أوجه التلاقي بين الشعر والقصة:

تتماس القصة مع الشعر في عدة مناحٍ، أبرزها الإيجاز، والتكثيف، والاعتماد على الإيحاء، واستبطان الذات، والتقاط الومضة، فالقصة القصيرة لا تعدو لقطة مركزة لمشهد من مشاهد عديدة، أو لحدث من أحداث شتى[١].

- وجود عناصر قصصية في كثير من شعر القدماء:

لم يخل الشعر العربي علي مدى مراحله من العنصر القصصي، نلمس ذلك في الشعر الجاهلي، وما تبعه من شعر عبر العصور، فهناك ملامح قصصية في بعض قصائد امرئ القيس، وكذلك شعر عمر بن أبي ربيعة، الذي تشهد رائيته الشهيرة على تطور هذا الجانب القصصي في الشعر العربي، والتي يستهلها بقوله:

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ
غَداةَ غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّرُ

وهناك أمثلة أخرى كثيرة من شعر الأعشى، وعروة بن الورد، والحطيئة، ودريد بن الصمة، وغيرهم، تبدو فيها ملامح القصة على تفاوت فيما بينهم، ودون أن تبلغ النضج الفني الذي بلغته في شعرنا المعاصر، وفي زمننا الراهن الذي تداخلت فيه الأشكال، وتمازجت الأجناس حتى غدا مصطلح (الآداب عبر النوعية)، يحظى باهتمام موفور من الأبحاث والندوات الأدبية، فالمبدع «يتحرك داخل مفهوم الأدبية في إنتاج نصه، حيث لا علامات لغوية شكلية، وإنما رؤية جمالية للعالم تصيب في اعتياديته، واللغة في معياريتها. أما وصف النص المبدع جنسيا فيظل رهينة إنتاج هذا النص لمعناه، وهو إنتاج يتحقق على الطرف الآخر من الاتصال الأدبي، أي حيث يوجد المتلقي.

إن طبيعة المعنى النصي الناتج عن فعالية المتلقي -وحدها- بإمكانها أن تحدد جنسية النص الأدبي، هل هي درامية؟ أم سردية ؟ أم غنائية؟ أم أنها من طبيعة عبر جنسية»[٢].

-المزايا الجمالية والثراء الفني لهذا التلاقي:

ومهما يكن من اختلاف حول هذه القضية فإن ما يعنينا -هنا- أن العنصر القصصي في القصيدة الشعرية يضفي



عليها طاقات إيحائية، وإمكانات دلالية، وجمالية لا تُنكر، وقد حدد الدكتور محمد غنيمي هلال تلك القيم فيما يأتي:

١- أن العنصر القصصي يتوافر فيه الإيحاء.

٢- تكتسب به العواطف الذاتية مظهر الموضوعية.

٣- أن العنصر القصصي لا يتفق بطبعه مع النغمة الخطابية التي قد توجد في الشعر الغنائي غير القصصي، فتضعف من قوته.

٤- أن الطابع القصصي يضفي علي الشعر الوجداني الوحدة العضوية.

٥- في الشعر ذي الطابع القصصي تظهر الأفكار والأحاسيس صورا تحليلية للموقف، ينمو الموقف بنمائها، وتظهر وحداتها في ظلالها[٣].

فالقصيدة في النقد الحديث بنية حية متماسكة الأجزاء، وهي شيء كامل وتام، ولا مرية في أن العنصر القصصي يسهم بدور فعال في تحقيق هذه الرؤية بحيث تغدو أكثر فاعلية، وتأثيرًا، وجذبًا.

-الملامح القصصية:

ومن يستعرض يجد في بعض نصوص شعرنا القديم هذا الطابع القصصي، ومن نماذج ذلك قصيدة قيس بن العيزارة التي يقول فيها:

لعَمْرُكَ أنْسَى رَوْعَتي يـــومَ أقْتُد
وهل تَترُكَنْ نفسَ الأسير الروائعُ

غداةَ تَناجَوْا ثُمَّ قَامُوا فَأجمَعُوا
بقتليَ سُلْكَى ليـــس فيها تَنَـــازُعُ

وقالوا: عدوٌّ مُسْرِفٌ في دمائكم
وهاجٍ لأعراضِ العشيرةِ قاطـــعُ

فسكَّنْتُهم بالقـــولِ حتَّى كأنَّهمْ
بواقرُ جُلْـــحٌ أسْكَنَتْهَا المراتـــعُ

وقلتُ لهم: شاءٌ رغيبٌ وجاملٌ
وكلُّكُمُ من ذلك المالِ شـــابعُ

وقالوا: لنا البلهاءُ أوَّل سُؤْلَةٍ
وأعراسُها، واللهُ عنيِّ يدافعُ

وقد أمَرَتْ بي ربَّتِى أُمُّ جُنْدُبٍ
لأُقتلَ لا يسمع بذلك ســـامعُ

تقول: اقتلوا قيسًا وحُزُّوا لسانَه
بحسبِهمُ أنْ يقطعَ الرأسَ قاطعُ

ويأمر بي شُعْـــلٌ لأُقْتَل مَقْتَلاً
فقلتُ لِشُعْلٍ: بئسَمَا أنْتَ شَافِعُ

....

....

وقال نســـاءٌ: لو قُتِلْتَ لَسَاءَنَا
سواكن ذو الشجو الذي أنا فاجعُ

رجالٌ ونسوانٌ بأكنـــافِ رايةٍ
إلى حُثُنٍ ثَمَّ العيونُ الدوامعُ[٤]

فهذه قصة قصيرة تكاد تكون مكتملة الأركان بمفهوم القصة القديم؛ إذ تشتمل على الحدث، وتحديد المكان «أقْتُد»، والزمان «الغداة»، والأشخاص: «الأسير، وأم جندب، وتأبط شرا، والآسرين».

ويبدأ الحدث بتجلي المأساة في أن الأسير قد سمع نجوى القوم، وهم يجمعون رأيهم على قتله، وقد جاء هذا الإجماع مدموغا بالحجة القاطعة التي لا تُدفع، والبرهان الساطع الذي لا يحُجب؛ فهذا الأسير قد أسرف في سفك دمائهم، وهتك أعراضهم، وقطع أرحامهم.

فماذا يفعل الأسير تلقاء هذا الموقف؟ وقد حمَّ وقع الأحداث، لم يجد أمامه سوى التلويح بإغراء المال وسطوته؛ لافتداء نفسه. وتبدو له بارقة الأمل، كما يبدو للمشاهد أن الصراع بدأ يتلاشى، وأن القصة قد اقتربت من لحظة التنوير؛ فالقوم بدا منهم الرضوخ لشهوة المال،

والتراجع عن عزمهم على الانتقام، والثأر، ومالوا إلى قبول هذا الافتداء، وهاهم يساومونه على الفدية، بل على أحب ماله إليه «البلهاء وأعراسها». والبلهاء: ناقة كريمة نجيبة فارهة عنده، وأعراسها أي أصحابها، أو أولادها.

بيد أن شخصية أخرى تظهر على مسرح الأحداث، والقضية وشك الانفراج، تعلن رفضها لهذا العرض؛ لتتأزم الأحداث مرة أخرى، وتتصاعد إلى ذروتها حيث تطلب من القوم عدم التراجع عن قتل الأسير، بل الإمعان في تقتيله، وهكذا تلوح النهاية المأسوية، ويزداد الموقف قتامة بمشايعة تأبط شرًّا «شعل» هذه المرأة، وموافقتها على ما ذهبت إليه.

ويلاحظ على هذه القصيدة ما يأتي :

١- تعدد الأصوات فيها، وتنوعها، فهناك أكثر من صوت، كما توزعت الأصوات بين الرجال والنساء، وقد أسهم هذا التعدد وذلك التنوع في نمو الحدث وبنائه، عبر تحاور الشخصيات وتصارعها.

٢- توافر عنصر المفاجأة، كما اتضح من عرض الحدث؛ ففي لحظة التنوير التي كرب القوم فيها أن يقبلوا الافتداء، يباغتنا صوت مخالف يبدد هذه النهاية السارة التي أوشكت على التحقق، وينتقل بها إلى الضد تمامًا.

كما نجد عنصر المفاجأة مرة أخرى عندما شايع «تأبط شرًّا» رأي المرأة في قتل الأسير، وكان الأسير -فيما يبدو- يأمل في مناصرته «فقلت لشعل: بئسما أنت شافع».

وعنصر المفاجأة في القصة يؤدي إلى تجديد النشاط، ودفع الملل، وإثارة التشوق، وطلب المزيد من التعرف،والتشويق «هو الذي يجعل القصة عملاً فنيًّا مقروءًا، ويجعل المسرحية عملاً مشاهدًا ممتعًا، ولا ينحصر في عنصر من عناصر البناء الفني، بل يجب أن يحرص الكاتب على بثه في كل المكونات: العنوان، والشخصيات، والمواقف، وصياغة الحوار، والخاتمة»(٥).

٣- يثير الشاعر في بنائه لقصيدته القصصية الدهش في تناقله من مكان إلى آخر، حيث ينتقل من المكان الذي أسر فيه «أقتد» إلى مواطن أهله وعشيرته «راية»، و«حتن» وهو في هذا أقرب ما يكون إلى تقنية تيار الوعي؛ حيث عمَّق بهذه النقلة النفسية أبعاد الحدث، وأضاف إليه دلالات إيحائية أخرى، ففي الأرض التي أسر فيها تريد «أم جندب» قتله والانتقام منه؛ كي تشفي غليلها لكن على الطرف الآخر في دياره، هناك نسوة يذرفن الدموع عليه؛ خوفًا وإشفاقًا من قتله.

٤- بدت من القصة الأبعاد النفسية والملامح المعنوية لشخصياتها؛ فشخصية الأسير تتوجس خيفة، وتتلهف لسماع ما يدور بشأنها، وما يُدبَّر لها، ومن ثم تسترق السمع لنجوى القوم، ومع ذلك فهي شخصية متماسكة، رابطة الجأش، تحتال لأمرها، وتواجه مصيرها، وخصمها بشجاعة.

وجاءت شخصية المرأة «أم جندب» متسمة بالقسوة والغلظة، وحرية الرأي واستقلاليته، في مواجهة آراء الرجال، مما يعطي انطباعًا إيجابيًّا بمكانة المرأة وقتئذ، ودورها المؤثر في المواقف العصيبة، كما اتصفت بالدهاء؛ حيث أشارت عليهم بقتله سرًّا، «فلا يسمع بذلك سامع».

كما بدا من خلال القصة جشع القوم الذين أسروه، وحبهم المفرط للمال، وتقبلهم لسماع رأي المرأة، والأخذ به، وقد أظهر النص -أيضًا- مدى ترابط الأهل وتعاطفهم مع الأسير، وتخوفهم من قتله.

الهوامش:

(١) يذكر الدكتور عز الدين إسماعيل أن «صفة التركيز أساسية في القصة... ويبلغ التركيز حد أنه لا يستخدم لفظة واحدة يمكن الاستغناء عنها، أو يمكن أن يستبدل بها غيرها، فلكل لفظة تكون موحية، ويكون لها دورها تمامًا كما هو الشأن في الشعر». عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه: دراسة ونقد، صـ١٥٠.

(٢) محمد فكري الجزار: فقه الاختلاف، مقدمة تأسيسية في نظرية الأدب، صـ١٤٧.

(٣) انظر : محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٥٤.

(٤) ديوان الهذليين، القسم الثالث، ص ٧٦.

(٥) محمد حسن عبدالله: قصص الأطفال، ومسرحهم، صـ ٥٤.